# الطاقة الرمزية للمقدس

الدكتور علي أسعد وطفة

**مجلة دراسات**: مجلة فصلية علمية محكمة

تصدر عن اتحاد كتاب وأدباء الإمارات

**العدد 29 – خريف 2011** ، صص **147–157** .

# الطاقة الرمزية للمقدس

أ.د.علي أسعد وطفة*

توجد روابط حيوية وعلاقات وشائجية بين الرمز والأسطورة والمقدس، وتأخذ هذه الروابط صورة معادلة بالغة التعقيد، فالأسطورة تمارس وظيفة مقدسة متشبعة بالرموز، والمقدس يمارس وظيفة رمزية أسطورية، في الوقت الذي يتغلغل فيه المقدس في أعماق الأسطورة كما يتغلغل الرمز نفسه في أعماق المقدس والأسطورة في آن واحد. في مواجهة هذه العلاقة المتفردة بين المقدس والأسطورة والرمز تقع هذه المحاولة استكشافاً لحدود وأبعاد العلاقة بين هذه الثلاثية المعقدة بين هذه الظواهر الثلاثية، إنها معادلة صعبة معقدة، ولكن تفكيكها أمر ممكن، حيث نتوخى عبر هذه المحاولة إضاءة الجوانب الغامضة في هذه المعادلة الفريدة. ورغم هذه الصعوبة المؤكدة، فإن تفكيك هذه المعادلة وتبسيطها أمر لا يخلو من الطرافة والجمال والكياسة، لأن طبيعة التداخل بين هذه الظواهر الثلاثة يأخذ طابعاً جمالياً يستمد سحره من سحر الأسطوري والرمزي والمقدس في آن واحد[1].

تتمثل الطريقة الأنجع لإدراك المقدس وفهمه في معايشته والتفاعل مع طقوسه الحيّة، هذا ما يومي إليه المفكر الأنتروبولوجي الألماني رودلف أوتو Rudolf Otto، إذ يرى بأن الانخراط في تجربة المقدس يشكل المنهجية الأنجع في الوصول إلى فهم أعمق لجوهره، وكشف أصدق لمكنوناته. ولا تقف تجربة التعايش مع المقدس عند حدود الكشف عن المقدس ذاته، بل تتجاوزه إلى إمكانية الاستيعاب الرمزي للكون الإنساني، بكل ما يتضمنه هذا الكون من معطيات، وما يشتمل عليه من مقومات. ووفقاً لهذه الرؤية فإن منهجية التفاعل الوجداني مع تجربة المقدس تمكّن الباحث من فهم التجليات الإعجازية أو الأسطورية للأشياء والأحداث والناس، وذلك خارج حدود المألوف في مجال التجربة الإنسانية المعتادة أو العادية[2]. فتجربة المقدس تنفلت من عقال الشروط العادية المألوفة للتجربة الإنسانية، وهي تتجلى بطريقة تُخترق فيها حدود العادي والمألوف، حيث عايش الناس تجربة المقدس في مواجهة القوى

* كلية التربية- جامعة الكويت.

## الأسطورة حكاية مقدسة:

لا يمكن للتجربة القدسية عند الإنسان أن تبقى دائماً في مظهرها الانفعالي الداخلي الخاص المكتنز في أعماق الإنسان، بل تتحرك لتعلن عن نفسها، وتبحث عن لغة تعبر فيها عن ذاتها في إطار الثقافة الحاضنة لها. وهي في سياق هذه الحركة من الداخل إلى الخارج تنزع لتترجم نفسها عبر خطاب منظم برؤية كونية في صورة قصصية ذات طابع أسطوري.

ومن المعروف أن كلمة أسطورة تأخذ طابعاً سلبياً في الثقافة السائدة، فالأسطورة كلمة تطرح نفسها في اللغة الجارية بوصفها نقيضاً لكلمة الحقيقة التي تأخذ طابعاً عقلانياً علمياً. فالأسطوري وفقاً للثقافة السائدة يناقض الحقيقة ويتناقض مع الواقع والوقائع، وبالتالي فالتعبير الشائع دائماً بالقول إن «هذا أسطوري» يعني أنه غير واقعي أو علمي وبأنه مفارق للحقيقة بكل أبعادها ومعانيها. ومع ذلك فإن هذا التعارض بين المفهومين (بين الأسطورة والحقيقة) ينأى عن الحقيقة ويفقد دلالته المنطقية. فالأسطورة لا تتعارض مع العلم ولا تناقضه لأنها تمارس وظيفة رمزية فحسب، وهذا الأمر ينسحب على التفكير الرمزي الذي لا يتعارض مع التفكير المنطقي ولا يناقضه في الأصل والجوهر. فالأسطورة لا تتبنى مزاعم علمية ولا ترعى حقائق منطقية وهي بذلك تضع نفسها خارج دائرة التناقض والتعارض مع الحقيقة العلمية[5]، وهذا يعني أن الأسطورة توظف لغة رمزية لتصف لنا تجربة البشر في استكشاف المقدس والتعايش مع جمالياته، كما أنها تعبر عن الطريقة التي يتفاعل فيها الناس مع معطيات المقدس لفهمه واستيعاب دلالاته الرمزية، إنها تحاول أن تخبرنا كيف يضفي الناس المعاني والدلالات على المقدس، وكيف يشكل هذا المقدس بذاته العمق الروحي والمعنوي لحياتهم وحركتهم، وكيف يمكن بالمقدس الإنساني الارتقاء إلى آفاق كونية عليا.

لقد دأبت الإنسانية منذ عهود قديمة على إبداع أجمل الأساطير وأعظم الحكايات، وهي ما زالت تبدعها وستبدعها دائماً ما بقيت الإنسانية ذاتها، وفي صيرورة هذا الإبداع المستمر تختلف مضامين هذه الأساطير دائماً باختلاف البلدان والزمان، ومع أهمية هذا التباين في الوظائف والدلالات الرمزية للأساطير فإن وظائفها الرمزية بقيت واحدة متجانسة في جوهرها: إضفاء المعنى والدلالة على الوجود وإكسابه طابع الحياة الدائمة[6]. فالأساطير رغم تنوعها وتنوع دلالاتها تتميز بطابع التجانس الذي يعطيها هوية واحدة لا انفصام في معانيها: فالأسطورة غالباً ما تأخذ صورة حكاية مقدسة أو قصة شائقة بالمعنى الدقيق للكلمة، وبالتالي فإن هذه الحكاية غالباً ما تتحدث عن الخوارق والقوى ما فوق الطبيعية (الآلهة، الأبطال الأسطوريون، الظواهر

مع الحقائق الإنسانية الأعمق والأشمل ويأخذه إلى مواطن القيم المطلقة للوجود. وفي عمق هذا التوليد الأسطوري للحقائق الكونية فإن الإنسان في تجربته الطقوسية هذه يستمد عبر هذه التجربة مشاعر القوة والإرادة والتصميم في مواجهة الحياة وتجاوز تخوم الحياة اليومية المثقلة بالهموم والأعباء. إنها تجعل الإنسان أكثر قدرة على مواجهة الحقد والكراهية والقلق والغيرة إذ تمنح الحياة الإنسانية مساحة أرحب للعطاء والفعل وتحقيق التوازن الإنساني[7].

ويمكن استكشاف الدورة الرمزية والصيرورة الوظيفية لهذه الطقوس واستيضاحها في نماذج تاريخية حيوية، إذ يمكن التأمل في الطقوس الإنسانية الكبرى التي تتمثل في الأعياد والاحتفالات التي تمارسها الأمم والشعوب الإنسانية، حيث يتضح دائماً لهؤلاء الذين يشاركون في الطقوس الكبرى (الأعياد، المناسبات، الاحتفالات) بأنهم غالباً ما ينفلتون من أسر الحياة اليومية فيكسرون جمودها للولوج في تجربة المقدس بفعاليته الرمزية. وهذا التعايش مع تجربة المقدس قد يتحقق في المعابد والأضرحة والأوابد، كما يمكن التفاعل معه عبر الأيقونات والمقامات والصور والاحتفالات، وفي الطقوس التي تأخذ طابعاً دينياً بصورة عامة[8].

## الدنيوي والمقدس:

تتجلى الأبعاد السيكولوجية للمقدس في ضوء حركته الدينامية التي تتجسد اجتماعياً في عمق الحياة الإنسانية. ومن أجل استكشاف هذه الدينامية الاجتماعية، يمكن النظر إلى وضعية المقدس في أحضان الثقافات المحتفية بدلالاته ومعانيه، ومثل هذا التناول للثقافات الحية يتطلب التفاعل مع المقدس في سياقه الاجتماعي، حيث تتباين المضامين الاجتماعية للمقدس بين مجتمع وآخر كما بين ثقافة وأخرى[9].

فالمقدس قد يتخاصب مع الدنيوي ويجاريه، وقد يتنافر معه وينأى عنه ولا يدانيه، وذلك في نسق من التفاعل الجدلي الذي لا يتوقف في مكان ولا يستقر في زمان. وفي هذا السياق، يمكن الإشارة إلى الأعمال الهامة لجورج باتاي Georges BATAILL الذي اتحف هذا الموضوع بدراساته وأبحاثه التي تتسم بطابعها الاجتماعي والأنتروبولوجي. فالمقدس كما يراه باتاي هو حالة من التجلي الإعجازي، أو حالة من التدفق الهائل العبثي الجمالي العنيف للحياة في مختلف تجلياتها؛ إنه انطلاق عاصف يعقلن النظام الاجتماعي القائم وينظمه من أجل استمرارية الحياة وديمومتها[10]. ويتضح في هذا السياق أن التفاعل الجدلي بين المقدس والدنيوي يشكل القانونية الناظمة للعلاقة بين المعاني والأشياء في ارتجاجات ثنائيات متلازمة: فالأنهار

### انتهاك المقدس:

إذا كان نظام الحياة الدنيوية، القائم على الوعي والعقلانية والعمل والمحرمات، يسمح بوجود الحياة الإنسانية واستمرارها كما هي، فإن هذا النظام نفسه يحمل الموت في تضاريس وجوده. وبعبارة أدق، إذا كان الدنيوي قادراً على أن يجعل الحياة الإنسانية ممكنة، فإنه مع ذلك غير قادر بذاته على أن يهب الحياة معناها ودلالتها. فالنظام الدنيوي يصاب بالتعب والوهن وتضعف فيه الطاقة الحيوية مع مرور الزمن، وعندما يصل هذا النظام الدنيوي إلى هذا المستوى من الضعف والوهن سيحتاج بالضرورة إلى عملية إحيائية تدفع فيه الحياة والقوة والنشاط، وعندها يتوجب شحن الحياة المادية بالطاقة الكونية، وهذا يعني شحن الحياة من جديد بطاقة المقدس، حيث يشكل المقدس جرعة كونية هائلة تدفع بالحياة إلى مدارها الطبيعي دفعاً يتسم بالقدرة والقوة والاقتدار.

فالحياة الإنسانية تحتاج في بعض دوراتها إلى رفع المحظورات والممنوعات ووضع المقدس في دائرة الانتهاك. وبالتالي فإن انتهاك المقدس يرتسم بوصفه نقيضاً للمحرم والممنوع. وانتهاك المقدس لا يعني بالضرورة نفياً للممنوع أو إلغاء له، بل يعني لحظة عابرة أو تعليقاً مؤقتاً ومرحلياً للمقدس والممنوع القدسي. فالانتهاك يرمز في الآن الواحد إلى ضرورة المحرم (الذي من غيره لا تكون هناك حياة إنسانية ممكنة) وإلى ضرورة تجاوز مرحلة الانتهاك ذاتها بوصفها مرحلة آنية عابرة في تاريخ المقدس، ومن غير هذا التجاوز ذاته فإن الحياة الإنسانية ستصاب بالجمود والتصلب والتحجر.

### المقدس الديني:

لعب الدين عبر التاريخ دوراً حيوياً في توجيه العلاقة بين الديني والدنيوي أو بين الدنيوي والمقدس. فالشعائر والطقوس الدينية لعبت تاريخياً دوراً حيوياً في تحقيق التوازن الخلاق في حياة الإنسان بين الدنيوي والمقدس. وتلكم كانت المهمة الأساسية لرجال الدين عبر الطقوس والممارسات الدينية على مرّ العصور والأزمنة القديمة. فرجال الدين في أغلب تسمياتهم الكهنوتية كانوا وما زالوا يمارسون دورهم الديني في إدارة المقدس وتوجيه العلاقة بين الدين والدنيا في ظل العلاقة بين الدنيوي والمقدس. وهذه الإدارة تنسحب أيضاً على الدين في إطار شموليته وتنظيماته الأخلاقية التي تدور حول وضعيات المقدس في دينامية العلاقة ما بين الإنسان والأرض والسماء[11].

ويمكن الملاحظة في هذا السياق، أن الشخصيات التي تولت الشأن المقدس هي

**انتزاع المقدس:**

تشكل مسألة انتزاع المقدس واحدة من أهم القضايا المعاصرة للحداثة الغربية. لقد أكدت الحداثة الغربية عبر مسارها الطويل عملية الانفصال عن عالم القداسة، حيث يعيش الإنسان الغربي المعاصر – رجلاً كان أم امرأة – في عالم دنيوي متحرر من أثقال المقدس وضوابط المنع والتحريم الذي نجده في المجتمعات القديمة أو الكلاسيكية.

وفي هذا السياق يعلن عالم الاجتماع المعروف روجيه باستيد Roger bastide بأن المجتمعات الغربية عرفت تجربة المقدس ومارسته، والأمر يتعلق هنا بنوع من المقدس البري وهو نوع من المقدس الخالص الذي فرض نفسه ببساطة وعفوية أي بعيداً عن أية طقوس وشعائر وممارسات قائمة على القسر الاجتماعي. وبالتالي فإنه لا يوجد في الثقافة الغربية ما يسمى انتهاكاً للمقدس، بل حالة من المنع والرفض والإلغاء كمنع المخدرات والجنس والسرعة والعنف... إلخ.

فالمقدس في المجتمعات التقليدية، على خلاف المجتمعات الغربية – كما وصفناه في الأعياد وفي الطقوس المرتبطة بالجنس على سبيل المثال لا الحصر – هو نوع من المقدس المدجن، حيث أُخضع لعملية ترميز طقوسية يمارسها المعنيون بالمقدس وبمعطياته، ومع ذلك فإن ممارسة المقدس والوصول إليه وانتهاكه أمر ممكن في سياق وقتي عابر، ولكنه محدد ومنظم ووفقاً لغايات مرسومة وأهداف واضحة معلومة. وهذا الانتهاك يتم في احتفالات وطقوس رسمية غالباً ما تكون «أيروتيكية» جنسية أو رغبوية إباحية، حيث يأخذ الممنوع حقه في الحضور والتجلي، وتأخذ هذه الممارسات الانتهاكية طابعاً منظماً ومدجناً وهدفه في النهاية إحياء الجمود وإعطاء الحياة الدنيوية جرعة تنأى بها عن الضعف والسقوط[15].

يتفق جان جاك فينبيرجر Jean–Jacques Wunenburger في تحليله لظاهرة الأعياد في الغرب مع تحليل باستيد لظاهرة المقدس بصورة عامة. ويبين فينبيرجر في هذا السياق أن الوظائف والدلالات والمعاني التي نجدها في الأعياد الغربية تختلف عنها في المجتمعات التقليدية، فالأعياد والاحتفالات في الغرب تأخذ طابع اللهو وتتمثل وظيفة الترويح، وذلك على خلاف الطابع الرمزي للأعياد في المجتمعات التقليدية أو المجتمعات الدينية. فالغربيون يريدون تحويل الحياة إلى صيرورة من اللهو والترويح، وبعبارة أخرى يعيش الغرب حالة قطيعة دائمة مع المقدس، حيث يعطى الدنيوي أهمية وخصوصية على فضاء المقدس ودلالاته. ووفقاً لهذا التصور فإن الديالكتيك القائم بين المقدس والدنيوي لا يمكن أن يحدث إذا كان الفضاء العام للوجود الإنساني يقع في دائرة المقدس أو كلياً في دائرة الدنيوي. وهذا يعني أنه ومن

**الهوامش:**

1. انظر: علي أسعد وطفة، المقدس رموز وطقوس وأساطير، المعرفة، مجلة تصدر عن وزارة، الثقافة في سورية، العدد 538، تموز 2008، ص ص(74 – 92).
2. M. Eliade: Le sacré et le profane. Paris، Gallimard، 1965; Traité d'histoire des religions. Paris، Payot، 1964.
3. علي أسعد وطفة، عقلنة المقدس في الثقافة العربية المعاصرة، شؤون عربية، العدد 109، ربيع 2002، ص ص 168 – 185.
4. Gilbert Gurand ، L'imagination symbolique. Paris، P.U.F. 1964.
5. G. Ménard et C. Miquel، Les ruses de la technique. Paris/Montréal، Mériiens–Klincksieck/Boréal، 1988.
6. P. Perger (La religion dans la conscience moderne. Paris، Centurion، 1971.
7. علي أسعد وطفة، في ماهية الرمز ووظيفته، المعرفة، العدد 547، السنة48، نيسان، 2009، ص ص (103 – 123).
8. J.–J. Wunenburger، La fête، le jeu et le sacré. Paris. Éd. universitaires، 1977.
9. – Émile Durkheim9) و) Les formes élémentaires de la vie religieuse. Paris، Alcan، 1925 [P.U.F. 1968]
10. – De Georges Bataille، Théorie de la religion. Paris، Gallimard، 1973 et L'érotisme، Paris، Minuit، 1957.
11. علي أسعد وطفة، المقدس وممتهنوه: العقلنة ونسيج المطلقات الشعبية: الريف السوري نموذجاً، كتابات معاصرة، مجلة الإبداع والعلوم الإنسانية، ص العدد 47 المجلد الثالث عشر، حزيران /تموز 2002، صص 75 – 82.
12. Roger Caillois، Le mythe et l'homme. Paris، Gallimard، 1938.
13. Bataille، «La notion de dépense»، in: La part maudite. Paris، Minuit، 1967.
14. Roger Bastide، Le sacré sauvage – et autres essais. Paris، Payot، 1975
15. علي أسعد وطفة، البينة الرمزية والأسطورية للمقدس، حضور المقدس وانحساره في الثقافة العربية، مجلة إضافات العدد 8 خريف 2009، صص 35 – 57. ◆

أجل بناء الجدل بين المقدس والدنيوي يجب أن ندرك الحدود الفاصلة بين الطرفين، وهي في الحالة الغربية منعدمة تقريباً، حيث لا حدود للدنيوي ولا حضور للمقدس بالمعنى للدلالة التي يحملها المقدس بوصفه محرماً وتابو وممنوعاً وممتنعاً. ومهما يكن الأمر وعلى الرغم من تعدد مؤشرات انحسار المقدس في الغرب وفي غيره فإن التجربة الإنسانية الخاصة بالمقدس لا يمكن أن تسقط من الوعي الإنساني

فالمقدس قائم وحاضر في اللاشعور والوعي الإنساني على الرغم من الانحسار الهائل في مستوى حضوره وعلى الرغم من التحولات الهائلة في وظائفه وطبيعته.

غالباً الأكثر انتهاكاً له وملامسة لمعانيه. وليس من الغرابة في شيء أن نقول بأن هذه الشخصيات دخلت هي نفسها في دائرة المقدس وانتسبت إليه واتشحت بأسراره وقدرته، وبتعبير أدق، يمكن القول: إن هذه الشخصيات أصبحت هي المقدس عينه، أو امتداد له في أدنى الأحوال. ووفقاً لقانونية المقدس ذاته، ارتبطت هذه الشخصيات الدينية بثنائيات المقدس، فأصبحت مثار إعجاب وازدراء، مصدر انجذاب ونفور، ومكمن خوف وأمان، ومصدر تهديد وثقة في آن واحد. وفي كل الأحوال ومهما يكن الأمر فإن رجال الدين حراس المقدس يوجدون في حلّ من إكراهات الحياة الدنيوية الأخلاقية وغيرها، وهم في أسوأ حالاتهم يشكلون الوسيط المستمر بين عالمين بين العالم الدنيوي والعالم القدسي بين السماء والأرض بين الله والإنسان.

يرى روجيه كيلواز Roger caillois في هذا الخصوص، أن اللحاق بالمقدس والوصول إليه لا يكون إلا بانتهاك المحرمات والممنوعات التي تنتصب على تخومه[12]. وإذا كان المحرم نفسه هو الذي يفصل بين المقدس والدنيوي فإن تقديسه هو الذي يجعل الحياة الدنيوية ممكنة، حيث يلعب هذا التحريم دوراً حيوياً في الفصل بين العالمين وفي إضفاء الطابع الدنيوي على الدنيوي ذاته كما هو الحال في وضعية المقدس.

فالدين في وضعية إدارته للمقدس وللعلاقة بين الدنيوي والمقدس يشكل مؤسسة تنظم العلاقة بين المجالين[13]. وهذا لا يعني إقصاءً لبعض الوكالات الأساسية المعنية بالمقدس مثل الطقوس والتجارب والشعائر والممارسات الإنسانية التي ترتبط بتجربة الدنيوي والمقدس. فالإدارة اليومية للممنوعات بما تتضمنه من حضور للتشريعات والعقوبات والطقوس المتعلقة بالمقدس ترمز إلى نوع من الفعالية الإنسانية الموجهة إلى المضامين القدسية للحياة الاجتماعية.

ومما لا شك فيه أن هناك ما يسمى «مقدس الانتهاك»، وهو عبارة عن طقوس وشعائر تعطي للجميع في فترة محددة إمكانية انتهاك المقدس والممنوع والمحرم. ففي الأعياد على سبيل المثال تنقطع روابط الحياة اليومية المألوفة، وفي بعضها (أي بعض هذه الأعياد) نجد أنماطاً من السلوك المعكوسة في الحالات العادية: في العيد يسمح بالإنفاق مقابل الادخار في الحياة اليومية العادية، يسمح للناس بنوع من السلوك المفتوح الحر بدلاً من القيود التي تفرض نفسها في الحياة اليومية، يسمح للإنسان بالهزل في مكان الجدية، وقد تُعاش طقوس العيد بصورة فيها مخاطرة ومجازفة على خلاف ما نراه في الحياة العادية؛ والعيد في هذه الحالة يتميز عن الاحتفالات الرسمية التي يأخذ فيها المقدس قطب الأهمية فيستوجب كل التفاصيل التي تسمو به وتنهض[14].

تجري في مجاريها أو تفيض عنها، والبراكين تنام في أخاديدها ولكنها تزأر وتثور، والحيوانات تولد وتموت، تصطاد أو تُصطاد، تفترس أو تقع فريسة الصياد.

وإذا كانت الأمور في تشاكل وتقاطع وتداخل، فإن الوعي الإنساني يعمل على توليد النظام في الأشياء، وتحديد المسافة بين مكوناتها البشرية، فيرسم حدودها وينحت تخومها، بل يدخل القطيعة في عمق التواصل الكوني، ثم يصل بين ما انقطع وانشطر، وفي دورة هذا التواصل والانقطاع استطاع الإنسان عبر العمل والنشاط العقلي الحرّ، ولاسيما عبر بناء الأدوات والماكينات والمخترعات (من الحجر إلى الدولاب حتى الطاقة النووية)، أن يحدد المسافة ويرسم التخوم التي تفصله عن الطبيعة. واستطاع عبر عملية اكتشاف الطبيعة أن يهيمن على مقدراتها. لقد حول مجرى الأنهار وجفف الينابيع وقتل ودجن وهدم وأفنى، وأدى ذلك كله إلى تلوث البيئة وخرق لقوانين الطبيعة، فجلب الوباء والبلاء وقاد الحياة إلى مصائد الموت وكوارث العدم.

لقد أحيط المقدس تاريخياً بهالة من المنع والتحريم، ووضع في دائرة عليا منفصلة عن الحياة العادية المألوفة؛ ومن ثم أحيط بسياج الممنوعات أو ضمن دائرة المحرم «التابو» Tabous وفقاً لأكثر مصطلحات الأنتروبولوجيا استخداماً وتوظيفاً في الإشارة إلى منعة المقدس وتعاليه. وهذا التحريم الذي يحيط بالمقدس يضعنا أمام مفارقة لا يستهان بها، إذ لما يوضع المقدس بكل معانيه السامية والخلاقة في دائرة المنع والامتناع؟ وقليل من التأمل يضعنا في مدارات الفهم والإدراك، لأن استباحة المقدس تضع الحياة الإنسانية في المستوى الأدنى للوجود، فالحيوانات وحدها تترك لغرائزها وميولها الطبيعية أن تنفلت من عقالها وأن تحكم مسار وجودها دون أن تقيم اعتباراً لأي شيء آخر، ففي حركتها استباحة وإباحة، حيث لا وجود لموانع وحواجز وحدود، وعلى خلاف ذلك فإن المنع الإنساني للمحرمات يعطي للإنسان قيمته الإنسانية، ويعلي من شأن المقدس بوصفه مداراً إنسانياً أخلاقياً يضفي على الحياة الإنسانية دلالة ومعنى وقيمة. وهنا بالذات فإن الإنسان نفسه يلج في دائرة المقدس ذاته فينهض به ويسمو بنفسه في الآن الواحد. إن تحرير المقدس بمعنى وضعه خارج دائرة التحريم يعني السير حثيثاً نحو موت الإنسانية في العمق والجوهر، وإن لم يكن في ذلك موت الإنسانية فإن الإنسان في أفضل حالاته سيكون أشبه بالحشرات التي تتيه بالضوء وتحترق بين إشعاعاته. وهنا يمكننا أن نفهم ما يضفيه الإنسان على الموت من قداسة لأن الموت ضمن هذا الاعتبار القدسي نوع من الاستمرار في تواصل الإنسان مع الكون والله.

المقدسة، الظواهر والقوى الطبيعة) وهي القوى الفاعلة في بناء الأسطورة وفي تدوين أحداثها ورسم إسقاطاتها الوجودية الخارقة. ويضاف إلى ذلك أن هذه الفعاليات غالباً ما تتسم بالجدة، إذ تقدم حقائق لم تكن معروفة ومعارف لم تكن معلومة فترسم عبر هذه الجدة صورة للكمال، بل تجسد الكمال نفسه في صورة الحقيقة، أي الحقيقة التي تنهض إلى مستوى المثال.

فالأسطورة كما تناهت إلينا حكاية مقدسة، تتميز بدفئها وتزخر بمعانيها، وتتألق بطفرات الجمال، إنها روح نابضة بالحياة بالنسبة لهؤلاء الذين يؤمنون بها. وهي في ذاتها أبعد ما تكون عن الحقائق الباردة التي تأخذ صورة علمية رابضة، إنها تأخذ مكانها السامق في نفوس المؤمنين بها، وبالتالي فإن أي رفض أو تبخيس أو إهمال أو نقد لهذه الأساطير سيولّد بالضرورة عدوانية هائلة من قبل الآخذين بأهدابها والقائمين على معانيها. وهكذا يعلمنا التاريخ بأن شعوباً بأكملها قد تعرضت للفناء نتيجة لموت أساطيرها، ولأن أساطير أخرى لم تولد من جديد لتأخذ مكانها.

## قوة الطقوس الأسطورية وسحرها:

تأخذ الأسطورة طابع حكاية مقدسة تستمد نسغ وجودها من عوالم عليا مقدسة تهبها الحياة وتمنحها الوجود. والطقوس فعاليات احتفائية فنية تستكشف أبهى صور الحياة الكامنة في عمق الأسطورة ذاتها، بل هي صورة إبداع جمالي يتجلى في أبهى صوره وأسمى تجلياته.

والطقوس ممارسة مختلفة عما نقوم به في الأيام العادية، إنها كالأساطير، ولكنها لا تأخذ في الوعي الحداثي المعاصر أكثر من صورة ممارسة روتينية مفرغة من المعنى والمضمون. فالطقوس هي تفعيل للأساطير واستحضار لمعانيها، بل هي استحضار الإنسان في محراب الأسطورة، إنها نقلة بالإنسان إلى الأعماق الداخلية لمعاني الوجود، إنها تواصل حر أصيل مع القوى الكونية العليا، بل هي طاقة معنوية تحيل إلى الينابيع الأولى للوجود والحياة والعدم والموت والسلام. فالقرابين المقدسة، والحج إلى الأماكن المقدسة، ورقصات الموت عند الهنود الحمر، واحتفالات الخصوبة عند القبائل البدائية، جميعها تشكل أنماطاً من الطقوس الحيوية المتشبعة بالمعاني الأسطورية، التي توقظ في ممارسيها فيضاً من الدلالات التي تخترق حجب الواقع في مغامرة الكشف عن المعاني الغامضة للوجود. ومثل هذه الطقوس تتنوع بمدى قدرتها على التخاصب القدسي مع الأساطير وقدرتها على تمثل الرموز التي تضفي على الكون ما يستحقه من دلالات ومعانٍ.

إن التخاصب بين الرموز والأساطير والطقوس يضع الإنسان في تجربة الاتصال

الطبيعية الهائلة المخيفة، وفي التناغم الوجودي مع جمال الطبيعة وعبقريتها.

وتكمن مفارقة هذا المقدس كتجربة فائقة في التناقضات التي تتجلى في تقاطع ثنائيات متنافرة متضافرة، إذ يرتكن المقدس في معظم تجلياته على تناقضات عنيفة، تتمثل غالباً في الخوف والطمأنينة، في الانجذاب والرفض، كما في التشويق والرفض. فالشعور الإنساني إزاء قوة عاصفة، يأخذ في الغالب شعوراً متناقضاً، قوامه الخوف والإعجاب، وهذا الشعور المتناقض يشمل كثيراً من المظاهر التي تتعلق بطفرات القوة والإعجاز في الحياة الطبيعية والاجتماعية في آن واحد، مثل: الخوف من الآلهة والإعجاب بقدرتها أو الشعور الغامر بمحبتها وكراهيتها في الآن الواحد.

## الطابع الرمزي للمقدس:

تشكل الرموز الطاقة الحيوية للمقدس، كما تشكل المدخل المنهجي الأساسي لمعايشته ومن ثم فهمه وإدراكه. فالناس يمارسون في حقيقة الأمر نمطين من أنماط التفكير: التفكير المنطقي الذي يسمح ببناء معرفة علمية واقعية تتعلق بواقع الأشياء والعالم الفيزيائي الذي نعيش فيه. والتفكير الرمزي الذي يستخدم منظومة من الدلالات للإشارة إلى الأشياء والمعاني في اتجاه فهمها ومقاربتها. وبفضل التفكير الرمزي يمكن للإنسان أن يتكلم ويكتب ويرسم وأن يبدع أنماطاً من السلوكيات التي تتميز بطابعها الرمزي، فالإشارة الحمراء تأمر بالوقوف، والوردة الحمراء ترمز إلى الحب، واللون الأسود يرمز إلى الحب، والعلم يرمز إلى وحدة الدولة ومنعتها، وطير السنونو إلى قدوم الربيع، والكتاب إلى المعرفة، والماء إلى الحياة. وهذه الرمزية هي التي تمنح الفن والأدب والشعر إمكانية الحضور والازدهار، كما أنها تشكل في النهاية السبيل الإنساني لبناء تجربة المقدس والانفتاح على معانيه؛ فعبر الكلمات والإيماءات والحركات والرموز يستطيع الناس التفاعل مع معطيات المقدس والتعايش مع دلالاته ومعانيه، فالكلمات والرموز والمعاني هي سبيل البشر إلى مخاطبة آلهتهم وهي السبيل إلى اختراق حجب القوى الكونية العليا ومداناتها[3]. وينبني على ذلك أن أي تراجع في القدرة على اكتناه الطابع الرمزي للمقدس يعني بالضرورة تراجعاً في قدرة الإنسان نفسه على التعايش مع المقدس والتفاعل مع معطياته الكونية[4]. ويمكن لتراجع القدرات الرمزية أن يتخذ أشكالاً وصيغاً مختلفة ومتباينة. فنمو التفكير العقلاني المنطقي العلمي الأحادي الاتجاه في أوروبا الغربية، وتقدمه على التفكير الرمزي قد أدى إلى انحسار هائل في معاني المقدس ودلالاته وانطباعاته الجمالية وإلى انحسار في القيم والدلالات والمعاني التي ترتبط بالحياة المعنوية والروحية للإنسان.